في أشراط السّاعة

في الأدعية والأذكار

يَا اللهُ، يَا عَلِيُّ، يَا عَظِيمُ، يَا حَلِيمُ، يَا عَلِيمُ... أَنْتَ رَبِّي، وَعِلْمُكَ حَسْبِي، فَنِعْمَ الرَّبُّ رَبِّي، وَنِعْمَ الْحَسَبُ حَسْبِي. تَنْصُرُ مَنْ تَشَاءُ وَأَنْتَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ؛ نَسْأَلُكَ الْعِصْمَةَ فِي الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ وَالْكَلِمَاتِ وَالْإِرَادَاتِ وَالْخَطَرَاتِ... مِنَ الشُّكُوكِ وَالظُّنُونِ، وَالْأَوْهَامِ السَّاتِرَةِ لِلْقُلُوبِ عَنْ مُطَالَعَةِ الْغُيُوبِ، فَقَدْ ﴿ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

الآيتان ٢٨٥-٢٨٦

آخر آيتين من سورة البقرة، الإيمان بالرّسل والتكليف بالوسع

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

المناسبة: بدأ الله تعالى هذه السورة بالكلام على القرآن والمؤمنين ومقارنتهم بالكافرين، ولا سيّما أخبار اليهود، ثمّ أرشد تعالى إلى كثير من الأحكام كالصيام والحجّ والطلاق، ومحاجّة الضالّين، وختم السورة بالكلام عن إيمان الرسول محمّد ﷺ والمؤمنين بالكتب السماوية وبالرسل الكرام دون تفريق أو تفضيل في أصل الرسالة والتشريع، وكان مسك الختام إبداء ما تفضّل الله به على هذه الأمّة من التكاليف السمحة السهلة التي لا ضيق ولا حرج فيها، وأنّ الإيمان وأهله منصورون على الكفر وأعوانه، إذا صحّ وصدقت العزيمة وتوافر الإخلاص والصدق وتنفيذ الأحكام الشرعيّة

المعنى العام

ورد في فضل هاتين الآيتين عدد من الأحاديث، منها ما رواه الشيخان وأحمد وغيرهما عن عبد الله بن مسعود قال: قال: رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ﴾[1].

ومنها الدعاء: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قِبَل لنا به، فإذا دعوت بذلك ﴿قَالَ اللهُ: نَعَمْ﴾، وفي الحديث الآخر: ﴿قَالَ اللهُ: قَدْ فَعَلْتُ﴾.

(١) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي مسعود، حديث رقم: ٥٠٠٩، كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل سورة البقرة.

وروى[١] مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: لمّا أسري برسول الله ﷺ، انتهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يُعْرَجُ به من الأرض فَيُقْبض منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها فيقبض منها، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾[٢] قال: فَرَاش من ذهب، قال: «وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثًا: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أُمته شيئًا المقحِماتُ»[٣].

وروى أحمد عن عقبة بن عامر الجهنيّ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْرَأِ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَإِنِّي أَعْطَيْتُهُمَا مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ»[٤].

وقد تقدّم في فضائل «**الفاتحة**» عَنِ ابْنِ عبّاس رضي الله عنهما، قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النّبيّ ﷺ، سَمِعَ نَقِيضًا[٥] مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: "هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ"[٦].

فقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ إخبار عن النّبيّ ﷺ بذلك، روى ابن جرير عن قتادة قال: ذُكر لنا أنّ رسول الله ﷺ قال لمّا نزلت عليه هذه الآية: «وَيَحِقُّ لَهُ أَنْ يُؤْمِنَ»، وقد روى الحاكم في مستدركه عن أنس بن مالك قال: لمّا نزلت هذه الآية على النّبيّ ﷺ قال النّبيّ ﷺ: «حُقَّ لَهُ أَنْ يُؤْمِنَ»، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرّجاه.

وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على «الرسول»، ثم أخبر عن الجميع فقال سبحانه: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ فالمؤمنون يؤمنون بأنّ الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره ولا ربّ سواه، ويصدّقون بجميع الأنبياء والرسل، والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرّقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارّون، راشدون مهديّون، هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله، حتّى نسخ الجميع بشرع سيّدنا محمّد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمّته على الحقّ ظاهرين.

قوله تعالى ﴿كُلٌّ آمَنَ﴾ أي: تفيد مراتب الإيمان والإيقان: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ إيمان تحقيق وشهود، والمؤمنون كلّ على قدر إيقان، كلّ واحد منهم آمن بالله على ما يليق به من شهود وعيان، أو دليل وبرهان ولكن شتّان بين إيمان وإيمان، الكلُّ آمنوا استدلالًا، وأنت يا محمّد آمنتَ وصالًا.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا قولك يا ربّنا وفهمناه، وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه، ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ سؤال للمغفرة والرحمة واللطف، ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي إليك المرجع والمآب يوم الحساب.

---

(١) ورواه أيضًا أحمد، وسيأتي لفظه بتمامه مرّة أخرى في تفسير الآية ١٦ من سورة النجم.
(٢) سورة النّجم، الآية: ١٦.
(٣) «المقحمات»: بكسر الحاء أي الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النّار، أي: تلقيهم فيها.
(٤) وإسناده حسن ولم يخرّجوه في كتبهم.
(٥) نقيضًا: المراد صوتًا عاليًا قويًّا، وهو الصوت الذي يحدث عند فتح الباب بقوّ.
(٦) رواه مسلم في صحيحه، عن ابن عبّاس، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، حديث رقم: ٨٠٦.

وقوله: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا يكلّف أحدًا فوق طاقته ولا حتّى طاقته بل وسعه، وهذا من لطفه تعالى بخلقه، ورأفته بهم، وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ﴾ أي: هو وإن حاسب وسأل، لكن لا يعذّب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأمّا ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يكلّف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيّئة من الإيمان كما سيأتي.

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أي: من شرّ وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف، ثمّ قال تعالى مرشدًا عباده إلى سؤاله، وقد تكفّل لهم بالإجابة كما أرشدهم وعلّمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: إن تركنا فَرْضًا على جهة النسيان، أو فعلنا حرامًا كذلك، أو أخطأنا الصواب في العمل جهلًا منا بوجهه الشرعيّ.

روى ابن ماجه في سننه وابن حبّان في صحيحه والطبرانيّ عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[1]. فهذا من خصائص الأمّة المحمّديّة التي منّ الله بها عليها اكرامًا لرسول الله ﷺ، فإنّ غير هذه الأمّة كانوا يؤاخذون به، فدلّ على عدم امتناعه.

قال أبو بكر الهذليّ: فذكرت ذلك للحسن فقال: أجل، أما تقرأ بذلك قرآنًا ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: لا تكلّفنا من الأعمال الشاقّة وإن أطقناها، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيّك محمّدًا ﷺ نبيّ الرحمة بوضعه، في شرعه الذي أرسلته به، من الدين الحنيف السهل السمح.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنّه قال بعد قراءته كلّ فقرة من هذا الدعاء: «قَالَ: نَعَمْ» يعني: أنّ الله تعالى يقول ذلك جوابًا لدعاء عبده، كما جاء في جميع الروايات لحديث ابن عبّاس أنّه قال كذلك: «قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ».

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قِبَل لنا به، «قال الله: نعم»، وفي الحديث الآخر: «قال الله: قد فعلت».

وقوله: ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ أي: فيما بيننا وبينك، ما تعلمه من تقصيرنا وزللنا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أي: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة ﴿وَارْحَمْنَا﴾ أي: فيما يستقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر واقض حوائجنا لأنّ الرحمة هي قضاء الحوائج، ولهذا قالوا: إنّ المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء، أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره.

وقوله: ﴿أَنتَ مَوْلانَا﴾ أي: أنت وليّنا وناصرنا، وعليك توكّلنا، وأنت المستعان وعليك التكلان، ولا حول لنا ولا قوّة إلا بك ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيّتك ورسالة نبيّك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة، قال الله: نعم، وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عبّاس: «قال الله: قد فعلت». فالله ناصر عباده المؤمنين لا محالة.

(١) رواه ابن ماجة في سننه، عن ابن عباس، حديث رقم: ٢٠٤٥، كتاب: الطلاق، باب: طلاق المكره والناسي، الحديث إسناده صحيح.

يقول الحقّ ﷻ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ إيمان تحقيق وشهود، والمؤمنون كلّ على قدر إيقانه، كلّ واحد منهم آمن بالله على ما يليق به من شهود وعيان، أو دليل وبرهان، وآمن بملائكته وأنّهم عباد مكرمون لا يعصون الله مآ أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وكتبه وأنّها كلام الله، مشتملة على أمر ونهي ووعد ووعيد وقصص وأخبار، ما عرف منها كالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وجب الإيمان به بعينه، ومالم يعرف وجب الإيمان به في الجملة، ورسله وأنّهم بشر متّصفون بالكمالات، منزّهون عن النقائص، كما يليق بحالهم، حال كون الرسول والمؤمنون قائلين لا نفرّق بين أحد من رسله أو: ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ كلّ منهم بين أحد من رسله بأن يصدّقوا بالبعض، دون البعض كما فرّقت اليهود والنصارى. ﴿وَقَالُوا﴾ أي المؤمنين سمعنا وأطعنا أي: سمعنا قولك وأطعنا أمرك، نطلب غفرانك يا ربّنا وإليك المصير بالبعث والنشور، وهذا إقرار منهم بالبعث الذي هو من تمام أركان الإيمان.

فلمّا تحقّق إيمانهم، وتيقّن إذعانهم، خفّف الله عنهم بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلا ما في طاقتها وتسعه قدرتها. وهذا يدلّ على عدم وقوع التكليف بالمحال ولا يدلّ على امتناعه. أمّا المحال العاديّ فجائز التكليف به، وأمّا المحال العقليّ فيمتنع، إذ لا يتصوّر وقوعه، وإذا كلّف الله عباده بما يطيقونه، فكلّ نفس ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الخير فتوفّى أجره على التمام، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من الشرّ، فترى جزاءه، إلا أن يعفو ذو الجلال والإكرام.

ثمّ قالوا في تمام دعائهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، أي: لا تؤاخذنا بما أدّى بنا إلى نسيان أو خطأ من تفريط أو قلّة مبالاة، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسُهَا وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[1].

ويجوز أن يراد نفس الخطأ والنسيان إذ لا تمتنع المؤاخذة بهما عقلًا، فإنّ الذنوب كالسموم، فكما أنّ تناول السمّ يؤدّي إلى الهلاك، وإن كان خطأ- فتعاطي الذنوب لا يبعد أن يفضي إلى العقاب، وإن لم يكن عزيمة، لكنّه تعالى وعد التجاوز عنه رحمة وفضلًا. ويجوز أن يدعو به الإنسان، استدامة واعتدادًا بالنعمة فيه. ويؤيّد ذلك مفهوم قوله ﷺ: «رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ»، أي: فإنّ غير هذه الأمّة كانوا يؤاخذون به، فدلّ على عدم امتناعه.

ثمّ قالوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ أي: عهدًا ثقيلًا يأصر ظهورنا، أي: يثقلها، فتعذّبنا بتركه وعدم حمله، ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ مثل اليهود في تكليفهم بقتل الأنفس في التوبة، وقطع موضع النجاسة، وغير ذلك من التكاليف الشاقّة، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من التكاليف التي لا تسعها طاقتنا، وهذا يدلّ على جواز التكليف بما لا يطاق عادة، وإلا لما سئل التخلص منه. قال قتادة: معناه لا تشدد علينا كما تشدّدت على من كان قبلنا، وقال الضحاك: معناه لا تحمّلنا من الأعمال ما لا نطيق.

﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ أي: امحُ ذنوبنا، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أي: استر عيوبنا، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ أي: تعطّف علينا، فاعف عن الصغائر، واغفر لنا الكبائر، وارحمنا عند الشدائد والحسرات، ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي: سيّدنا وناصرنا، ﴿فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فإنّ من شأن المولى أن ينصر مواليه على الأعداء.

(١) رواه ابن ماجة في سننه، عن ابن عباس، حديث رقم: ٢٠٤٥، كتاب: الطلاق، باب: طلاق المكره والناسي، الحديث إسناده صحيح.

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيتين:

١. هذه شهادة الحقّ - سبحانه - لنبيّه ﷺ بالإيمان، وذلك أتمُّ له من إخباره عن نفسه بشهادته. ويقال هذا خطاب الحق معه ليلة المعراج على جهة تعظيم القَدْر فقال: ﴿آمَنَ ٱلرَّسُولُ﴾، ولم يقل آمَنتَ، كما تقول لعظيم الشأن من الناس: قال الشيخ، وأنت تريد قلتَ.

٢. تعليم هذا الدعاء واستحباب الدعاء به اقتداءً بالرسول ﷺ وأصحابه وقد ورد: أنّ من قرأ هاتين الآيتين عند النوم كفتاه ﴿آمَنَ ٱلرَّسُولُ...﴾ السورة.

٣. تقرير أركان الإيمان وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك الإيمان باليوم الآخر والقدر خيره وشرّه.

٤. وجوب الإيمان بكافّة الرسل وحرمة الإيمان ببعض وترك البعض وهو كفر والعياذ بالله تعالى.

٥. وجوب طاعة الله ورسوله والتسليم والرضا بما شرع الله ورسوله وحرمة ردّ شيء من ذلك.

٦. (وقالوا) أي المؤمنين سمعنا وأطعنا أي: سمعنا قولك وأطعنا أمرك، نطلب غفرانك يا ربّنا وإليك المصير بالبعث والنشور، وهذا إقرار منهم بالبعث الذي هو من تمام أركان الإيمان. فلمّا تحقّق إيمانهم، وتيقّن إذعانهم، خفّف الله عنهم بقوله: لا يكلّف الله نفسًا إلا وسعها.

٧. من معاني ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أن الله تعالى كلّفنا أقلّ ممّا نطيق. فمثلا طاقة الانسان أن يحمل مائة كيلو، فهذه الطاقة القصوى وفي وسعه حمل خمسين كيلو. فالله تعالى كلّفنا بالوسع لا بالطاقة. فمثلًا كلّفنا بخمس صلوات في اليوم الليلة ونحن نطيق أكثر لذلك منّا من يصلّي السُّنن والوتر. كلّفنا بالزكاة ومقدارها ٢,٥٪ من المال الذي بلغ النصاب تحسب مرّة في السنة ومنّا من يخرج الزكاة ويزيد عليها الصدقات. كلّفنا بصيام شهر رمضان ومنّا من يزيد على ذلك فيصوم الاثنين والخميس طيلة السنة. وكلّفنا بالحجّ والعمرة مرّة واحدة في العمر ومنّا من يحجّ ويعتمر مرارًا. فالحمد لله الواسع الذي وسّع علينا وكلّفنا وسعنا ولم يكلّفنا طاقتنا. فمن لطفه بنا كانت هذه العبادات المخفّفة.

٨. رفع الحرج عن هذه الأمّة رحمة بها.

٩. وعبّر في جانب الخير بالكسب، وفي جانب الشرّ بالاكتساب، تعليمًا للأدب في نسبة الخير إلى الله، والشرّ إلى العبد. فتأمّله.

١٠. وعبّر عن الحسنة بكسب، لأنّ الحسنة توافق فطرة الانسان فيفعلها وهو فرح مرتاح، بخلاف السيّئة التي تخالف فطرة الانسان السليم فيفعلها وهو حزين خائف فقال عنها اكتسبت.

١١. عدم المؤاخذة بالنسيان أو الخطأ فمن نسي وأكل أو شرب وهو صائم فلا إثم عليه أو أخطأ فلا إثم عليه إذا قتل.

١٢. مفهوم قوله ﷺ: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ»، أي: فإنّ غير هذه الأمّة كانوا يؤاخذون به. فهذا من خصائص الأمّة المُحَمَّديَّة التي منَّ الله بها عليها إكرامًا لرسول الله ﷺ.

١٣. يُفهم من سرّ الآية أن من شقّ عليه أمر من الأمور، أو عسرت عليه حاجة، أو نزلت به شدّة أو بليّة، فليرجع إلى الله، ولينطرح بين يدي مولاه، وليعتقد أنّ الأمور كلّها بيده فإنَّ الله تعالى لا يخلّيه من معونته ورفده، فيخفّف عنه ما نزل به،

أو يقوّيه على حمله، فإنّ الصحابة ﷺ لمّا شقّت عليهم المحاسبة على الخواطر سلّموا وأذعنوا لأمر مولاهم، فأنزل عليهم التخفيف، وأسقط عنهم في ذلك التكليف، وكلّ من رجع في أموره كلّها إلى الله قضيت حوائجه كلّها بالله.

١٤.قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾.

فالأوامرُ المخفَّفةُ لهذه الشريعةِ المحمّديَّةِ جاءت مخففّةً بِلُطْفٍ عن شريعةِ موسى عليه السلام. فمثلًا:

- كان الرَّجُلُ من بني إسرائيل إذا جاءَتْ نجاسَةٌ على ثَوْبِهِ فلا يَطْهُرُ الثَّوْبَ إلَّا بِقَصِّ مَوْضِعِ النَّجاسَةِ.
- وكان إذا أتى ذنبًا لا يتوبُ اللهُ عليه إلَّا إذا كَتَبَ الذَّنْبَ على بابِ بيتِهِ.
- وكانت الأمم (السّالفة) إذا أذنبوا احتاجوا إلى مضي مدّة لقبول التوبة، وفي هذه الأمّة قال ﷺ: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ».
- وكان إذا وقعت حاجة كلّموه بلسان الواسطة. قالوا: ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[1]. وهذه الأمّة قال لهم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2].
- وكانت الأمم (السّالفة) منهم من قال اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، وهذه الأمّة اختصت بإشراق أنوار توحيدهم، وخصائصُهم أكثر من أن يأتي عليه الشرح.
- ولمّا قالوا: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ خَسَفَ الله ذنوبهم بدل خسف المتقدمين، فأبدل ذنوبهم حسنات بدل مسخهم، وأمطر عليهم الرحمة بدل ما أمطر على المتقدمين من الحجارة. وفي هذه الأمّة قال لذلك نَدْعو بهذهِ الآيةِ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾[3] فهذا من لطف الله بهذه الأُمَّةِ.

١٥.قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ - في الحال- ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ - في المآل.

١٦. العفو عن حديث النفس لنزول الآية فيه ما لم يتكلّم المؤمن أو يعمل. لقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ».

١٧.﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ في جميع الأحوال إذ ليس لنا أحد سواك، فأنت مولانا فاجعل النصرة لنا على ما يشغلنا عنك.

الوسوسة وحديث النفس:

ضاق الأمْرُ على الصّحابةِ فجاءوا إلى النَّبيِّ ﷺ وجَثوا على الرُّكَبِ وقالوا: يا رسول الله نَزلَتْ عليكَ الآن آيةٌ لا نستطيعُها. فعلَّمَهُمُ النَّبيُّ ﷺ دعاءً: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»[4]. وقال: «لَا تَكُونُوا كَبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ قَالُوا: "سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا"» فقالت الصّحابة: "سمعنا وأطعنا" ثمّ نزل البيان الإلهيّ لِيُخَفِّفَ عنهم ويُبيّنَ المعنى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[5]. أي إنّ الخطرات لا يُحاسِبُ عليها اللهُ تعالى، ولكن إذا استمرَّتْ الخطراتُ وَبنَيْتَ عليها وحدّثْتَ نَفْسَكَ بها فالله يُحاسِبُكَ، أمّا إذا كانَتْ فكرةٌ شيطانِيَّةٌ صَرَفَتْها فاللهُ تعالى لا يُحاسِبُك عليها. وإنّ الله تعالى في الحديثِ القُدْسيّ يقولُ يَوْمَ القِيامَةِ: «هَذَا يَوْمٌ تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ وَتُخْرَجُ الضَّمَائِرُ وَأَنَّ كُتُبِي لَمْ يَكْتُبُوا إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَأَنَا الْمُطَّلِعُ عَلَى مَا لَمْ يَطَّلِعُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يُخْبَرُوهُ وَلَا كَتَبُوهُ فَأَنَا أُخْبِرُكُمْ بِذَلِكَ وَأُحَاسِبُكُمْ عَلَيْهِ فَأَغْفِرُ لِمَنْ أَشَاءُ وَأُعَذِّبُ مَنْ أَشَاءُ»[6]، ومن هذا الحديث القدسيّ الشّريف وهذا الاسم يجب أن نستشعرَ مبدأ المُراقبةِ أي أن تُراقبَ قلبَكَ وفكرَكَ واللهُ يسمع ما تُحدّثُ به نفسَكَ وإنَّهُ سُبْحانَهُ يسمع ما تتلفّظُ به، حتّى الأنينَ في المرضِ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٤. (٢) سورة غافر، الآية: ٦٠. (٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٤) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١٢٥، كتاب: الإيمان، باب: بَيَانِ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا ما في أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٦) ذكره القرطبي في تفسيره، باب: سورة البقرة، الآية ٢٨٤، ج٣، ص٤٢٢.

يُكْتَبُ عليك، فسيّدنا أحمدُ بْنُ حَنْبَل ﷺ لمّا سَمِعَ بذلك امتنع عن الأنين حتّى لا يكونَ في صحيفته إلّا مُباح.

فالوسوسة وحديث النفس شيء يهجم على القلب بغير اختيار الإنسان، ومن فضل الله تعالى ورحمته أن تجاوز عن ذلك ما لم يعمل به أو يتكلّم، كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[1].

والمراد به في (الأذكار): الخواطر وحديث النفس إذا لم يستقرّ ويستمرّ عليه صاحبه فمعفو عنه باتّفاق العلماء؛ لأنّه لا اختيار له في وقوعه ولا طريق له إلى الانفكاك عنه. وهذا العفو عن مثل هذه الخواطر وحديث النفس يظلّ باقيًا ما دامت في تلك الحدود.

- قال العلماء: المراد به الخواطر التي لا تستقرّ. قالوا: وسواء كان ذلك الخاطر غيبة أو كفرًا أو غيره، فمن خطر له الكفر مجرّد خطران من غير تعمّد لتحصيله ثمّ صرفه في الحال فليس بكافر ولا شيء عليه اهـ.
- وقال العزّ بن عبد السّلام في (قواعد الأحكام): لا أعرف في الوجود شيئًا أكثر تقلُّبًا في الأوصاف والأحوال من القلوب، لكثرة ما يرد عليها من الخواطر والقصود، والكراهة والمحبّة، والكفر والإيمان، والخضوع والخشوع، والخوف والرجاء، والأفراح والأحزان، والانقباض والانبساط، والارتفاع والانحطاط، والظنون والأوهام، والشكوك والعرفان، والنفور والإقبال، والسآمة والملال، والخسران والندم، واستقباح الحسن واستحسان القبيح، ولكثرة تقلّبها قال: وليسِ كُلًّا يفعلُ اختيارا يقول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[2]. وَكَانَتْ يَمِينُهُ ﷺ «لا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ»[3]، وَسُمِّيَ الْقَلْبُ قَلْبًا لِتَقَلُّبِهِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَلَا عِقَابَ عَلَى الْخَوَاطِرِ، وَلَا عَلَى حَدِيثِ النَّفْسِ لِغَلَبَتِهَا عَلَى النَّاسِ، وَلَا عَلَى مَيْلِ الطَّبْعِ إِلَى الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، إِذْ لَا تَكْلِيفَ بِمَا يَشُقُّ اجْتِنَابُهُ مَشَقَّةً فَادِحَةً، وَلَا بِمَا يُطَاقُ فِعْلُهُ وَلَا تَرْكُهُ." [4].
- ونقل عنه السيوطيّ في حاشيته على سنن النسائيّ أنّه قال:" حديث النّفس الذي يمكن رفعه لكن في دفعه مشقّة لا إثم فيه؛ لهذا الحديث". وهذا عام في جميع حديث النّفس.
- وبهذا يتبيّن للسائل أنّ هذا الحديث يشمل وسوسة الشيطان وحديث النّفس وجميع الخواطر الواردة على القلب، مهما كان فحشها وشناعتها، وقد جاء رجل إلى النّبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله إنّ أحدنا يجد في نفسه يعرض بالشيء لأن يكون حِمَمة أحبّ إليه من أن يتكلّم به؟ فقال ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ»[5].
- ونقل السيوطيّ عن العزّ أنّه قال: الذي في النفس على قسمين: وسوسة، وعزائم. فالوسوسة هي حديث النفس وهو المتجاوز عنه فقط، وأمّا العزائم فكلّها مكلّف بها.

والعزيمة أي ما جاء في الخاطر وأخذ به الإنسان وهمّ أن ينفّذه. فإن كان معصية وامتنع تكتب له حسنة. وإن كان معصية ومنع دونها أي حاول أن يفعلها ولكن منعه أمر خارج عن إرادته تكتب عليه سيّئة من غير تبعاتها. وإن همّ بالسيّئة وفعلها تكتب عليه سيّئة مع تبعاتها.

فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[6].

آثارهم: أي تبعات الحسنات والسيئات. فمن علّم إنسانًا الصّلاة وحثّه عليها كان له مثل أجره كلّما صلّى من غير أن ينقص من أجر المصلّي شيء. ومن دلّ صديقه أو ابنه على معصية كان عليه وزرها كلّما ارتكبها من غير أن ينقص من وزر العاصي شيء.

(١) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٦٦٦٤، كتاب: الأيمان والنذور، باب: إذا حنث ناسيًا في الأيمان.
(٢) رواه الحاكم في المستدرك، عن أنس، حديث رقم: ١٩٢٧، كتاب وباب: الدعاء، والتكبير، والتهليل، والتسبيح، الحديث صحيح.
(٣) رواه البخاري في صحيحه، عن ابن عمر، حديث رقم: ٦٦٢٨، كتاب: الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ.
(٤) ذكره العز بن عبد السلام في قواعد الأحكام في مصالح الأنام، باب: فيما يعاقب من قبح الصفات، ج١، ص١٣٨.
(٥) رواه أبو داود وأحمد، وصحّحه الألبانيّ.
(٦) سورة يس، الآية: ١٢.

قال رسول الله ﷺ: «مَن سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعَمِلَ بِها، كانَ لَهُ أجرُها وَمِثْلُ أجرِ مَن عملَ بِها، لا يَنقُصُ مِن أجورِهِم شيئًا وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِها، كانَ عَلَيهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِها مِنْ بَعْدِهِ لا ينقصُ مِنْ أوزارِهِم شيئًا»[1].

وفي رواية مسلم عن جرير بن عبد الله كُنَّا عِنْدَ رَسولِ الله ﷺ في صَدْرِ النَّهارِ، قالَ: فَجاءَهُ قَوْمٌ حُفاةٌ عُراةٌ، مُجْتابِي النِّمارِ أَوِ العَباءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عامَّتُهُمْ مِن مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِن مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسولِ الله ﷺ لِما رَأَى بِهِمْ مِنَ الفاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فأمَرَ بِلالًا فأذَّنَ وَأقامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى آخِرِ الآيَةِ ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2]، وَالآيَةَ الَّتي في الحَشْرِ: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ﴾[3]، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِن دِينارِهِ، مِن دِرْهَمِهِ، مِن ثَوْبِهِ، مِن صاعِ بُرِّهِ، مِن صاعِ تَمْرِهِ، حتَّى قالَ: ولو بِشِقِّ تَمْرَةٍ، قالَ: فَجاءَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصارِ بِصُرَّةٍ كادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْها، بَلْ قدْ عَجَزَتْ، قالَ: ثُمَّ تَتابَعَ النَّاسُ، حتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِن طَعامٍ وَثِيابٍ، حتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسولِ الله ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: «مَن سَنَّ في الإسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَن عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِن غيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِن أُجُورِهِمْ شَيءٌ، وَمَن سَنَّ في الإسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كانَ عليه وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَن عَمِلَ بِهَا مِن بَعْدِهِ، مِن غيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِن أَوْزَارِهِمْ شَيءٌ»[4].

ما حكم من همّ بالحسنة ولم يفعلها؟ وما حكم من همّ بالسيّئة ولم يفعلها؟ وما حكم من همّ بالسيّئة وفعلها؟

هذه بشارة عظيمة من الله تعالى، ورحمة، بشّر بها الله تعالى المسلمين، بعد أن فرض عليهم الصلوات الخمس، على سيّدنا محمّد ﷺ بلا واسطة جبريل، عندما أسرى به إلى المسجد الأقصى، ثمّ عرج به إلى السماوات العُلى.

فمن همّ بالسيّئة وفعلها، كتبها الله عليه سيّئة واحدة. أمّا من همّ بالحسنة وفعلها، كتبها الله له عشر حسنات ويضاعفها إلى ما يشاء. وهذا من عظيم رحمته لعباده. وأمّا إذا أراد السيّئة، ثمّ لم يعملها، عجزًا منه، لا خوفًا من الله تعالى، فهو عند الله آثم، كما يدلّ عليه حديث الصحيحين: «إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قيل، يا رسول الله: هذا القاتل، ما بال المقتول؟ فقال، ﷺ: «أَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ»[5]. ولكنّه عجز عن ذلك.

والخلاصة أنّ الخاطر الذي يعرض للإنسان أنواع:

الأوّل: أن يكون ما يطرأ على النفس وساوس لا قرار لها، ولا ركون إليها؛ فهذه لا تضرّ؛ بل هي دليل على كمال الإيمان؛ لأنّ الشيطان إذا رأى من قلب الإنسان إيمانًا ويقينًا حاول أن يفسد ذلك عليه؛ ولهذا لما شكا الصحابة إلى رسول الله ﷺ ما يجدونه في أنفسهم من هذا قال: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوه؟» قالوا: نعم؛ قال: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»؛ وفي حديث **آخر**: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ».

الثاني: أن يهمّ بالشيء المحرّم، أو يعزم عليه، ثمّ يتركه؛ وهذا أنواع:

١/ النوع الأوّل: أن يتركه لله؛ فيثاب على ذلك، كما جاءت به السنّة فيمن همّ بسيئة فلم يعملها أنّها تكتب حسنةً كاملة؛

(١) رواه ابن ماجه، عن جرير بن عبد الله، حديث رقم: ٢٠٣، أبواب السنة، ١٤- من سنّ سنّة حسنة أو سيئة.
(٢) سورة النساء، الآية: ١.
(٣) سورة الحَشْر، الآية: ١٨.
(٤) رواه مسلم في صحيحه، عن جرير بن عبد الله، حديث رقم: ١٠١٧، كتاب: العلم، باب: من سن سنة حسنة أو شيئة.
(٥) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي بكرة، حديث رقم: ٧٠٨٣، كتاب: الفتن، باب: إذا التقى المسلمان بسيفيهما.

قال الله تعالى في الحديث القدسي: (تركها من جرّائي)، أي من أجلي.

٢/ النوع الثاني: أن يهمّ بها، ثمّ يتركها عزوفًا عنها؛ فهذا لا له، ولا عليه؛ لقول النّبيّ ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**».

٣/ النوع الثالث: أن يتمنّاها، ويحرص عليها؛ ولكن لا يعمل الأسباب التي يحصّلها بها؛ فهذا يعاقب على نيّته دون العقاب الكامل، كما جاء في الحديث في فقير تمنّى أن يكون له مثل مال غنيّ كان ينفقه في غير مرضاة الله؛ فقال النّبيّ ﷺ: «**فَهُوَ بِنِيَّتِهِ؛ فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ**».

٤/ النوع الرابع: أن يعزم على فعل المعصية، ويعمل الأسباب التي توصل إليها؛ ولكن يعجز عنها؛ فعليه إثم فاعلها؛ لقول النّبيّ ﷺ: «**إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ**»، قالوا: يا رسول الله هذا القاتل؛ فما بال المقتول؟ قال: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**».

و لكن من ارتكب المعصية يحاسب عليها وعلى آثارها و ما يترتّب عليها، أمّا من عزم على فعل المعصية و مُنع دونها لا يحاسب على آثار المعصية و ما يترتّب عليها لأنّها لم تقع.

الإيمان بالأنبياء والرسل من أركان العقيدة:

من أركان العقيدة الإسلاميّة الإيمان بجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام، وكذلك الإيمان بجميع ما أنزل عليهم.

ففي صفة عقيدة المؤمنين قال الله تعالى في سورة (البقرة): ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1].

ويأمر الله نبيّنا محمّدًا ﷺ ويأمرنا معه، فيقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2].

فعقيدة الإيمان بالله لا تنفكّ عن الإيمان برسله:

لأنّ من مقتضى الإيمان بالله تصديق المؤيدين بتأييد من عنده بمختلف صور التأييد الرّبانيّ، الذي لا يمكن أن يكون من الله تعالى إلا لرسله الدالّين عليه، المبلّغين لشريعته ودينه بصدق.

ولأنّ من مقتضى الإيمان بالله تصديقه في كلّ ما يخبرنا به، وهذا يقتضي الإيمان برسله الذين أخبر عنهم في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثمّ إنّ الإيمان بواحد من الرسل لا ينفكّ عن الإيمان بجميع الأنبياء والرسل الصادقين، فوجب الإيمان في الكلّ واحد.

لذلك يعلن المسلم دائمًا وفق عقيدته - التي متى أخلّ بها كفر -: أنّه لا يفرّق بين أحد من رسل الله وأنبيائه في الإيمان، فهو يؤمن بهم جميعًا دون تفريق، ويعظّمهم جميعًا، لأنّهم أنبياء الله المصطفين عنده.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥. (٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٤.

القضاء والقدر:

هل الإنسانُ مخيّرٌ أم مسيّر؟ كيف يكون الإنسانُ مخيرًا، وجميع ما يفعل مقدّرٌ عليه؟ وما المخلّص في نفي تُهمة التسيير؟

القضاء: هو علمُ الله تعالى مُنذ الأزل بالأشياءِ كلِّها، وكيف ستكون في المستقبل.

القدر: هو إيجادُ الله تعالى هذه الأشياءَ بالفعل، طِبقًا لعلمِهِ الأزلي.

الإنسانُ مخيرٌ في كلّ الأفعالِ التي يعملها بإرادتهِ واختياره، مثلَ القيام، والجلوس، والأكل، والشرب، والطاعة، والعصيان. والإنسان مخيرٌ بمشيئة الله تعالى، أي، أنّ الله تعالى شاءَ أن يتميّزَ الإنسانُ عن باقي المخلوقاتِ بالعقل والإرادة، ولذلك، فهو محاسبٌ على كلّ أفعاله الاختياريّة. أمّا الأمور التي ليس للإنسان فيها خيار، مثلَ ولادته، وموته، ووقوعه، وارتعاش يديه عند المرض، فهو مجبرٌ عليها. ولذلك، فهو لا يحاسب عليها.

القضاء، كما عرّفناه، علم الله الأزليّ بالأشياء، كيف ستكون. وعِلمُ الله، صفةُ كشفٍ وإحاطةٍ، لا إجبار فيها ولا تأثير. فالله علِمَ أنّ فلانًا سيعملُ الخيرَ بإرادته واختياره، وأنَّ فلانًا سيعمل الشرّ بإرادته واختياره. وعِلمُ الله بهذه الأمور ليس معناها أنّ الله يُجبرُ عبادهُ على فِعلِ هذه الأشياء، إنْ خيرًا أو شرًّا، إنّما يخلق الله تعالى هذه الأفعالُ عندَ كسْبها، فإذا ما همَّ الإنسانُ بالصّلاة، خلقها الله تعالى على يديه، وإذا همَّ بشُربِ الخمر، خلق الله تعالى على يديه الفعل. ولهذا، فالإنسانُ محاسبٌ على ما يكسِبُ من الأفعالِ التي يخلقها الله تعالى، عند تعاطيه لأسبابها، والتي فعلها الإنسان بملء إرادته، واختياره. فإن كانت خيرًا، خلق الله فعلَ الخير على يديه، وارتضاه له، وأثابه عليه. وإن كانت شرًا، خلق الله فعل الشرّ على يديه، ولم يرضه له، وعاقبه عليه. قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[1].

وفي متن جوهرة التوحيد

وَقُدْرَةٌ إِرَادَةٌ وَغَايَرَتْ أَمْرًا ... وَعِلْمًا وَالرِّضَا كَمَا ثَبَتْ

فقدرةٌ بممكنٍ تعلقتْ ... بلا تناهي ما به تعلقتْ

ووحدةً أوجبْ لها ومثلُ ... ذي إرادةٌ والعلمُ لكنْ عمَّ ذي

وواجبٌ إيمانُنا بالقدرِ ... وبالقضا كما أتى في الخبرِ

أمّا عقيدة المسلمين، فيما يختصّ بالقضاء والقدر، فهي أن نعتقد ونجزم بأنّ جميع أفعالنا وحركاتنا، سواء كانت خيرًا أو شرًّا، هي واقعةٌ بإرادة الله تعالى، وتقديره، ولكنّنا نكتسب أعمالنا بإرادتنا الجزئيّة، التي خصّصها الله تعالى لنا. فإن اخترنا الخير، أُثِبنا عليه، وإن اخترنا الشرّ، عُوقِبنا عليه. ولذلك، لا يجوزُ علينا مطلقًا، نسبة الظلم لله تعالى، لأنّ الله، تعالى، ليس بظلّامٍ للعبيد، وهو يتصرّف بملكه، كيفما يشاء. ولكي نوضّح الصورة أكثر، نذكر المثل التالي: لنفرض أنَّ هنالك رجلين يمثّلان فيلمًا سينمائيًّا خرافيًا؛ زيد وسعيد. ولنفرض أنّ زيدًا استطاع، بطريقة ما، أن يسبق سعيدًا بالزمن، بخمس دقائق. ولنفرض أنّ سعيدًا كان داخل غرفةٍ زجاجيّة كبيرة، يفعل فيها ما يشاء، وزيدًا يجلس خارج هذه الغرفة، يراقبه، وينظر إلى كلّ أفعاله، وأقواله؛ يراها ويسجّلها، وسعيدٌ لا يعلم بذلك. وبما أنّ زيدًا سابق على سعيد بالزمن، بخمس دقائق، كانت الساعة مع زيد الواحدة وخمس دقائق، وكانت الساعة مع سعيد الواحدة تمامًا. فنظر زيد فوجد أنّ سعيدًا سيشرب كأسًا من الخمر، في الساعة الواحدة وخمس دقائق، فأمسك زيدٌ قلمه، وسجّل في كتابه أنّ سعيدًا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

سيشرب الخمر في الساعة الواحدة وخمس دقائق. ولكنّ، الساعة مع سعيد ما تزال الواحدة، وسعيد لم يفعل شيئًا بعد. ولكن بما أنّ زيدًا سابق على سعيد بالزمن، علِم ما سيعمله سعيد بعد خمس دقائق. ولمّا أصبحت الساعة الواحدة وخمس دقائق مع سعيد، أمسك سعيد بالفعل، كأسًا من الخمر، وشربه. هنا سؤال: هل كتابة زيد في كتابه أن سعيدًا سيشرب كأسًا من الخمر في الساعة الواحدة والخمس دقائق أجبرت سعيدًا على ذلك؟ أم أنّ كتابة زيدٍ هي مجردُ علمه بما سيفعله سعيد، لأنّه سبقه بالزمن؟ وهو مطّلع عليه؟ ومن البديهيّ أنّ زيدًا لم يجبر سعيد على شيء. ولله تعالى المثل الأعلى، فالله تعالى منزّه عن الزمان والمكان. لا يحدّه زمان، فهو يعلم ما كان، وما سيكون. وعِلمُ الله صفةٌ من صفاته الأزليّة، فالله علم الأشياء كلّها، وكيف ستكون، وماذا ستفعل، منذ الأزل، وقبل إيجاده لهذه الأشياء. والله كتب ما سيحدث في هذا الكون، وكتب أعمالنا في اللوح المحفوظ. وعِلمُ الله الأزليّ صفةُ كشفٍ وإحاطةٍ، لا إجبارَ فيها ولا تأثير. فالله بعلمِهِ لأحوالنا وأعمالنا، وكتابتِهِ لها في اللوح المحفوظ، لم يُجبرنا على فعل هذه الأفعال، التي، إنّما فعلناها بإرادتنا ومشيئتنا، التي شاء الله أن يميّزنا بها عن غيرنا من المخلوقات. ولذلك، حقّ علينا الحسابُ على ما اكتسبنا من الأعمال، التي فعلناها بمشيئتنا، وإدراكنا لعواقبها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[1].

وقال: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾[2] أي إنّه، من طلب الهداية من الله تعالى، خلق الله تعالى الهداية على يده. ومن طلب الضلال، خلق الله تعالى الضلال على يده. ولنضرب مثلًا آخر، يقرّب لنا الصورة:

لنفرض أنّ رجلًا ذهب إلى عرّافٍ (ومن المعلوم أنّه لا يجوز شرعًا الذهاب إلى العرّاف، فمن صدّق أنّ العرّاف يعلم شيئًا من الغيب، فقد كفر، لأنّه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى. ومن ذهب إلى عرّافٍ يسأله، ولم يصدّقه، كان مرتكبًا لكبيرةٍ من الكبائر) فقال له هذا العرّاف أنَّ أخاك سيشتري، بعد ستة أشهر، سيّارة جديدة من نوع كذا، وصفة كذا، ولكنّها ستُسرقُ منه بعد شهرين، والذي سيسرقها هو زيدٌ من معارفكَ، ولكن، لا تخبره بالأمر. ليكن الأمرُ سرًا بيننا. وبعد مرور الزمن، تبيّن أنّه حصل تمامًا كما أخبره العرّاف. نحن نعلم أنّ العرّاف لا يعلم الغيب، ولكن، لنفرض هنا، ولنقرّب الصورة فقط، أنّ العرّاف كان يعلم ماذا سيحصل بالفعل مع هذا الرجل. هنا، نطرح سؤالًا: هل أجبر العرّافُ أخَ ذلك الرجل أن يشتري السيّارة الفلانيّة، من نوع كذا، وصفة كذا؟ وهل أجبر العرّاف زيدًا من معارفه أن يسرق السيارة بعد شهرين؟ طبعًا، كلّ ما هنالك، أنّ هذا العرّاف (فرضًا) اطّلع على الغيب، وعلم ما سيكون، عِلمًا لا إجبار فيه. فللهِ المثل الأعلى. بهذا، تبيّن معنا أنّ ما كتبه الله تعالى علينا في اللوح المحفوظ، أو في أمّ الكتاب، هو ما سنفعله باختيارنا فقط، دون أيّ إجبارٍ منه، تعالى لنا. فنحن، إذا شئنا أن نفعل كذا، خلق الله الفعل على يدنا، وأثابنا عليه، إن كان طاعة، وعاقبنا عليه، إن كان معصية. هذا شرح قولنا "أنّ علم الله تعالى صفة كشفٍ وإحاطةٍ، لا إجبارَ فيها ولا تأثير".

وفي شرح العقيدة الطّحاويّة

حقيقة القدرة (تكون مع الفعل) هي صفة يخلقها الله تعالى عند قصد اكتساب الفعل بعد سلامة الأسباب والآلات فإن قصد فعل الخير خلق الله تعالى قدرة فعل الخير، وإن قصد فعل الشرّ خلق الله قدرة فعل الشرّ وكان هو المضيّع لقدرة فعل الخير فيستحقّ الذمّ والعقاب.

(١) سورة محمّد، الآية: ١٧. (٢) سورة مريم، الآية: ٧٦.

والفرقُ بين الخلق والكسب أنّ المقدور مخترع ومكتسب، فمن حيثُ كونُه مخلوقًا يضاف إلى الله تعالى بجهة الاختراع، ومن حيث كونه كسبًا يضاف إلى العبد، ولا استحالة في دخول مقدور واحد تحت قدرة قادرين بجهتين مختلفتين: إحداهما خلقًا وهي خارجة عن مقدور العبد والأخرى كسبًا للعبد بأقدار الله تعالى.

وفي متن جوهرة التوحيد

وخادلٌ لمنْ أراد بُعدهُ ... ومنجزٌ لمنْ أرادَ وعدَهُ
فوزُ السعيدِ عندهُ في الأزلِ ... كذا الشقيُّ ثمَّ لم ينتقلِ
وعندَنا للعبدِ كسب كُلفا ... ولم يكنْ مؤثرًا فلتَعرفا
فليسَ مجبورًا ولا اختيارًا ... وليسِ كُلًا يفعلُ اختيارا

ما معنى قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾.

هذه الآية معناها، أنّنا لا نفرّق بين نبوّة نبيٍّ وآخر، من حيث حقيقة النبوّةِ ومعناها. أمّا مِنْ حيثُ المنزلة، فلا شكّ أنّ سيّدنا محمّدًا، ﷺ، هو أفضل المخلوقات جميعًا. ومن ثمّ، باقي الرسل. ومن ثمّ، باقي الأنبياء. ومن ثمّ، أكابر الملائكة. ومن ثمّ، صالحي البشر، كأبي بكر وعمر وغيرهم. ومن ثمّ، باقي الملائكة. ومن ثمّ، باقي الناس.

وفي متن بدء الأمالي:

وَلم يَفْضُلْ وَليٌّ قَطُّ دَهْرًا ... نَبيًّا أَو رسولًا في انْتِحالِ

س: هل يدلّ ذلك على أنّ الإنسان مجبر، لا خيار له البتة، لو شاء الله تعالى، خلقه مؤمنًا، ولو شاء، خلقه كافرًا، ولا خيار له؟

ج: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[2].

إنّ هذه الآيات المذكورة في السؤال، ليست في بحث القضاء والقدر، والإجبار والتخيير، في شيء، وإنّما هي توضّح حقيقة مستقلّة أخرى، لا شكّ فيها، ولا نزاع. وهي، أنّ الله تعالى، لو شاء، لأمدّ الناس جميعًا، بلطف من عنده، يجعلهم يختارون الإيمان، والانصياع للحقّ، دون أن يستجيبوا لشيء من أهوائهم، ورعوناتهم، أو وساوس شياطينهم. ولو شاء سبحانه، لجعل الناس جميعًا ينساقون إلى اليقين بالحق، قصرًا دون اختيار منهم، كما فعل مع الملائكة، إذ خلقهم مجبولين على طاعة الله تعالى. ولكنّه تعالى لم يشأ ذلك، بل شاء أن يضع الإنسان مختارًا، بين واقعين يتجاذبانه، وهما النفس بشهواتها، والعقل بتدبيره، كي يتجلّى في طاعته لله تعالى، معنى الجهاد والتكليف، وإلّا لمّا أحرز المجاهدون، والمستقيمون على الطاعة، أي أجر على جهادهم. إذ، لا جهاد حينئذ أصلًا.

والآيات الدالّة على أنّ الإنسان مخيّر، مريد بالنسبة للتصرّفات الاختياريّة، كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[1].

(١) سورة النحل، الآية: ٩.
(٢) سورة يونس، الآية: ٩٩.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[٢].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾[٣].

إلى ما هنالك من الآيات الكثيرة الأخرى، التي تنصّ على أنّ مناط الأجر والعقاب، إنّما هو كسب الإنسان، أي، انبعاثه نحو الشيء الذي أمر به، أو نهي عنه. وإنّما شاء الله تعالى أن يجعل خلقه وقدرته وفقًا لانبعاثاتهم، حتّى يكون ذلك بمثابة السجلّ، الذي تثبت فيه هذه الانبعاثات، مُجَسَّدة في مظهر الفعل الذي ظهرت فيه.

وفي شرح العقيدة الطّحاويّة

(وأفعال) جميع (العباد) إنّما (هي بخلق الله تعالى وكسبٍ من العباد).

صور من احتمالات الخلق الممكنة:

إذًا ثبت لدينا ما يلي:

١. أنّ علم الله ﷻ محيط بكلّ شيء بما كان وبما هو كائن وبما سيكون.

٢. وأنّ إرادته ﷻ حرّة مختارة لا يؤثّر عليها مؤثّر، ولا يكرهها مكره، وفي مقدورها أن تتعلّق بكلّ أمر ممكن.

٣. وأنّ قدرته سبحانه على إيجاد ما تتعلّق به إرادته وقدرته على إعدامه قدرة تامّة كاملة؛ لا تقف دونها عوائق ولا حدود.

٤. وأنّ حكمته تعالى بالغة في اختيار الأكثر كمالًا وإبداعًا ومصلحة، دون إلزام أو إكراه، وإنّما هي من توابع كمالاته تعالى.

س: هل نجد تنافيًا مع صفة عدل الله وحكمته - بالنسبة إلى هذا المخلوق الذي لم يمنح إرادة حرّة، ولا قدرة مستطيعة على تنفيذ أي شيء ممّا يريد أو توجيهها لبعض ما يريد - أن يكلّفه الخالق ببعض الأعمال التي لا يستطيعها، وليس لديه الإرادة الحرّة التي يستخدمها في توجيه القدرة إلى العمل والقيام بالفعل المأمور به أو الكفّ عن الفعل المنهيّ عنه؛ ثمّ يقرر عليه العقوبة إذا لم يطع الأمر ولم يقم بتنفيذ التكليف؟

ج: إنّنا نعلم من صفات الخالق جلّ وعلا العدل والحكمة، ولم نعهد في عدل الله أو حكمته أن يكلّف مخلوقًا من مخلوقاته فوق وسْعِهِ وطاقته تكليفًا يراد منه التنفيذ الذي يعجز عنه؛ ثمّ يعاقبه على المخالفة أو التقصير، وقد ثبت بالنصّ أيضًا أنّ الله لا يكلّف نفسًا إلا وسعها وإلا ما أتاها.

قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[٤].

وقال تعالى في سورة (الطلاق): ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾[٥].

وقال تعالى في سورة الأنعام ١٥٢ و الأعراف ٤٢ والمؤمنون ٦٢: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٢) سورة غافر، الآية: ١٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٥) سورة الطلاق، الآية: ٧.

حقيقةٌ تاريخيّةٌ دينيّةٌ: رَبٌّ واحدٌ ودينٌ واحدٌ:

أرسلَ الله تعالى جميعَ الأنبياءِ والمرسلينَ بدينِ الإسلامِ. فهو سبحانَه ربٌّ واحدٌ، أرسلَ جميعَ الرّسلِ بدينٍ واحدٍ. وجميعُ الأنبياءِ والمرسلينَ عليهم السلام جاؤوا بدينِ الإسلامِ، ودَانوا به منهم: سيّدُنا آدمُ، وسيّدُنا نوحٌ، وسيّدُنا إبراهيمُ، وسيّدُنا إسحاقُ، وسيّدُنا يعقوبُ (إسرائيل)، وسيّدُنا يوسفُ، وسيّدُنا موسى، وسيّدُنا عيسى، وسيّدُنا محمّدٌ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعينَ.

ورُكْنا الإيمانِ والإحسانِ (أي: العقيدةُ والتّزكيةُ والأخلاقُ) لَم يتغيَّرا مِن نبيٍّ إلى نبيٍّ. لذلكَ نجدُ جميعَ الأنبياءِ مِن لدُنْ سيّدِنا آدمَ عليه السلام مرورًا بسيّدِنا إبراهيمَ وسيّدِنا موسى وسيّدِنا عيسى، إلى سيّدِنا محمّدٍ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين قد جاؤوا بالعقيدةِ عينِها "الإيمان"، لَم يتغيّرْ منها شيءٌ واحدٌ، وجاؤوا أيضًا بالتّزكيةِ والأخلاقِ نفسِها "الإحسان".

أمَّا الشّريعةُ، أي: الأحكامُ التّكليفيّةُ المتعلّقةُ بالحلالِ والحرامِ، الخاصّةُ بالجسدِ، فقد أنزلَ الله تعالى على كلِّ رسولٍ شريعةً تناسِبُ قومَه وعَصْرَه. ولمّا كانَ سيّدُنا محمّدٌ صلى الله عليه وسلم خاتَمَ الأنبياءِ والمرسلينَ، وكان مُرسَلًا إلى الإنسِ والجِنّ والعَوالِمِ كافّةً؛ وَجاءتْ شريعَتُه صالحةً لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، مِن زمنِ بعثَتِه صلى الله عليه وسلم إلى يومِ الدّين. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[1].

وقالَ عن رسُلِه عليهم السلام: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2].

فكان كلُّ نبيٍّ مُرسَلًا إلى قومِه وأهلِ زمانِه خاصّةً، ولا يوجَدُ تَغييرٌ في الدّين بين رسولٍ ورسولٍ بل بعضُ تفاصيلِ الشّريعةِ وفروعِها فقط، بما يتلاءمُ معَ زمانِ قومِ ذلكَ النّبيِّ ومكانِهم وحالِهم في زمنِ نبوّتِه.

فسيّدُنا موسى عليه السلام أمرَ قومَه بني إسرائيلَ بالصّلاة والصّيامِ، ولكن بكيفيّةٍ تختلفُ عن صلاتِنا وصيامِنا، وحرّمَ عليهم أشياءَ، ثم جاءَ عيسى عليه السلام ليُحِلَّ لهُم بعضَ الذي كان حُرِّمَ عليهم، ويثبّتَهم على الإيمانِ والإحسانِ اللذيْنِ جاءَ بهما سيّدُنا موسى عليه السلام.

قال الله تعالى على لسانِ سيّدِنا عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ...﴾[3].

إذًا، الأنبياءُ كلُّهم دينُهم الإسلامُ، وقد بيّنَ الله تعالى ذلكَ بوضوحٍ في كتابِه العزيزِ: حيثُ قال عن سيّدِنا إبراهيمَ عليه السلام: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[4]

وقال على لسانِ سيّدِنا موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[5].

وقال عن سيّدِنا عيسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[6].

القرآنُ الكريمُ يَنصُّ بكلِّ وضوحٍ على أنّ دينَ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السلام الإسلامُ، ودينَ سيّدِنا موسى عليه السلام الإسلامُ، ودينَ سيّدِنا المسيحِ عيسى ابنِ مريمَ عليه السلام الإسلامُ، ودينَ سيّدِنا محمّدٍ صلى الله عليه وسلم هو الإسلامُ. إنّه دينٌ واحدٌ مِن ربٍّ واحدٍ. أمّا تسميةُ دينِ سيّدِنا موسى عليه السلام بالدّينِ اليهوديِّ؛ فلَم يكن هذا في زمنِه، بل حَصلَ بعدَ وفاتِه، وكذلكَ تسميةُ دينِ سيّدِنا عيسى عليه السلام

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.
(٥) سورة يونس، الآية: ٨٤.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.

بالمسيحيّةِ، لَم يكن في أثناءِ حياتِه على الأرضِ، وإنَّما حصلَ بعدَ أكثرِ مِن ثلاثينَ سنةٍ مِن محاولةِ صَلْبِه عليه السلام، ورفْعِ الله تعالى إيّاهُ إلى السّماءِ، ومازال سيّدنا عيسى عليه السلام حيًا في السّماء وسينزل إلى الأرض في آخر الزمان. ومعنى ذلك بأنّ دين الأنبياء واحد هو الإسلام.

لذلك أمرنا الله تعالى أن نؤمن بجميع كتبه: التوراة المنزَّل على سيّدنا موسى عليه السلام ، والزبور المنزَّل على سيّدنا داوود عليه السلام، والإنجيل المنزّل على سيّدنا عيسى عليه السلام، والقرآن الكريم المنزَّل على سيّدنا محمّد ﷺ. أمرنا الله تعالى أن نؤمن بالتوراة الأصليّة المنزلة على سيّدنا موسى عليه السلام وليس بالتي حُرِّفت أو تُرجِمَت، ولذلك علينا أن نؤمن بالإنجيل الأصلي المنزل على سيّدنا عيسى عليه السلام وليس بالذي حُرِّفَ أو تُرْجِم.

فلا يَصِحُّ إيمانُ لإنسان في هذه الأمَّةِ أمَّةِ سيّدنا مُحمّد ﷺ ما لم يؤمن بجميع الرُّسل المرسلة من عند الله تعالى وجميع الكتب المنزّلة من عند الله تعالى كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1].

وقد ذكر الله تعالى لنا في القرآن الكريم مقاطع من التوراة والإنجيل، فقال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ* وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ* بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ، إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ* صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[2] [أي هذا الكلام السّابق مذكور في الصّحف الأولى].

وقد ذكر الله تعالى في القرآن أنَّ النّبيّ مُحَمَّدًا ﷺ وأصحابه مذكورون في التوراة والإنجيل فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[3].

في الأمر والنّهي

العمل بالآيتين:

- اقرأ الآيتين آخر البقرة في ليلتك؛ ففيهما كفاية لمن قرأهما، ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾.
- احرص اليوم بعد فراغك من أيّ طاعة وعمل خير أن تسأل الله تعالى المغفرة، ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.
- اعمل اليوم عملًا صالحًا بلسانك، أو مالك، أو جوارحك، ثمّ ادع بدعاء؛ فهو أرجى لقبول دعائك، ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

خواتيم سورة البقرة

باب الحث على قراءة سور وآيات مخصومة

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥. (٢) سورة الأعلى، الآيات: ١٤-١٩. (٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

وعن ابن عبّاس ﷺ قال: بينما جبريل عليه السلام قاعد عند النّبيّ ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسه فقال: ﴿هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ وَلَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ﴾ فنزل منه ملك فقال: ﴿هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا، لَمْ يُؤْتِهِمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيتَهُ﴾ (١).

في الأخلاق والآداب

التوجيهات:

- السمع والطاعة لله سببٌ لنيل مغفرته سبحانه، ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.
- موالاة الله سبحانه وتعالى سبب للانتصار على الأعداء، ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الحكمة: لا تطلب عوضًا على عملٍ لست له فاعلًا، يكفي من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلًا.

في السّيرة والشّمائل

وفيه إشارة إلى عظيم قدر سيّدنا محمّد رسول الله وشمائله المجيدة وسعة علمه ﷺ وكثرة علومه التي لا يحصيها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه.

من ذلك: علمه ﷺ بخصائص الآيات القرآنيّة، كما ورد عن النعمان بن بشير عن النّبيّ ﷺ قال: ﴿إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السمواتِ والأرضَ بِألفَيْ عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ، خَتَمَ بِهِما سورةَ البَقَرَةِ، لا يُقْرَآنِ فِي دَارٍ ثلاثَ لَيالٍ فَيَقْرَبُها شَيْطَانٌ﴾ (٢).

في السّلوك

الإشارة: يُفهم من سرّ الآية أنّ من شقّ عليه أمر من الأمور، أو عسرت عليه حاجة، أو نزلت به شدّة أو بليّة، فليرجع إلى الله، ولينطرح بين يدي مولاه، وليعتقد أنّ الأمور كلّها بيده فإنَّ الله تعالى لا يخليه من معونته ورفده، فيخفّف عنه ما نزل به، أو يقوّيه على حمله، فإنّ الصحابة ﷺ لما شقّ عليهم المحاسبة على الخواطر سلّموا وأذعنوا لأمر مولاهم، فأنزل عليهم التخفيف، وأسقط عنهم في ذلك التكليف، وكلّ من رجع في أموره كلّها إلى الله قضيت حوائجه كلّها بالله. **«من علامات النجاح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات».**

في الإعجاز العلميّ

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن ابن عباس، حديث رقم ٨٠٦، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، عن النعمان بن بشير، حديث رقم: ٣٠٣١، كتاب: التفسير، باب: بسم الله الرّحمن الرّحيم من سورة البقرة، الحديث صحيح.

في الأدعية والأذكار

وهذه الآيات **(خواتيم سورة البقرة)** وردت فيها نصوص تدلّ على فضلها العظيم؛ منها:

أنّها من كنز تحت العرش.. روى أحمد عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ بَيْتِ كَنْزٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ وَلَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي»**[1].

وروى ابن حبّان عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتِ الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا، وَجُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَأُوتِيتُ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُ أَحَدٌ قَبْلِي، وَلَا يُعْطَى أَحَدٌ بَعْدِي»** [2].

أنّ من قرأهما في ليلة كفتاه. في "الصحيح"، عن أبي مسعود الأنصاريّ البدريّ: أنّ رسول الله ﷺ قال: **«من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»** [3] أي من بعد أذان العشاء.

وهما من قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ إلى آخر السورة. قيل: معناه كفتاه عن قيام الليل، فيكون معنى (من قرأ) من صلّى بهما أو من قرأهما بعد صلاة العشاء، وقيل: معناه كفتاه بركةً وتعوّذًا من الشياطين، والمضارّ، ولعلّ كلا الاحتمالين مراد.

(١) رواه أحمد في مسنده، عن أبي ذر، حديث رقم: ٢١٣٤٤، مسند: الأنصار، مسند: حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، الحديث صحيح لغيره.
(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، عن حذيفة، حديث رقم: ١٦٩٧، كتاب: الصلاة، باب: شروط الصلاة، الحديث إسناده صحيح.
(٣) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي مسعود، حديث رقم: ٥٠٠٩، كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل سورة البقرة.